ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْ

كتبه

ياسر برهامي

عفا الله عنه







رقم الإيداع : ٢٣٣٢٦ / ٢٠٠٦

دار الخلفاء الراشدين
ج.م.ع - الإسكندرية - حي الرمل
ش منشية الزهراء - أبو سليمان
٠١٠٦٧١٤٧٦٨/٠١٠٥٠١٣١٥١

دار الفتح الإسلامي
الإسكندرية - مصطفى كامل
بجوار مسجد الفتح الإسلامي
٠١٠٥٠١٣١٥١/٠١٠٧٣٨٢٧٨٢

الشركة الفنية للطباعة
ت: ٧٧٧١٠٣٩



إنَّ الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم .

أما بعد : فإن أصدق الحديث كتاب الله ، وأحسن الهدي هدي محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار .

ثم أما بعد ..

فقد قضى الله ﷻ بعدله وحكمته أن جعل الأيام بين الناس دولًا ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ

ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٠-١٤١] .

فجعل الله ﷻ الأيام يتناوب الناسَ فيها اليسرُ والعسر ، والعز والذل ، والتمكين والاستضعاف ، وقدَّر الله سبحانه وتعالى لأنبيائه ورسله وهم صفوته من خلقه ، كما قدَّر أيضًا على أوليائه من أتباعهم أن تمر عليهم فترات من المحن والشدائد ، وأن تمر عليهم فترات يُستضعفون فيها في الأرض ، وأن يكونوا قلة أذلة ﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الأنفال : ٢٦] .

قدَّر الله ﷻ ذلك مع كونه ﷻ لا يحب الظالمين ولا يحب الكافرين ، وإنما سلطهم مدة وجيزة من الزمن على عباده المؤمنين ليستخرج من عباده المؤمنين أنواعًا من العبودية يحبها ، لا يمكن أن توجد هذه الأنواع لو أنه هدى الناس جميعًا ، وهو ﷻ لو شاء لهدى الناس جميعًا ، وأمره ﷻ لا يحتاج إلى تكرار وتثنية ﴿ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴾ [القمر : ٥٠] .

فما أن يأمر حتى يقع ما أمر ﷻ ، وهو ﷻ لا يعجزه أن يجعل الناس أمة واحدة على الإيمان ، حتى أعدى أعداء الدين هو قادر

ﷻ أن يقلب قلوبهم على الهدى ، ولو شاء لجعل الناس أمة واحدة لكنه قدر ذلك للحكم البالغة ، وله الحمد ﷻ عليها ، لذلك عندما يجد المؤمن المسلمين يصابون بأنواع المصائب والمحن ، ويضطهدون بأنواع الاضطهاد ، ويجد الفساد ينتشر في مشارق الأرض ومغاربها ، ويرى البلاء والمحن ، ويرى أنواع الشدائد يحمد الله ﷻ ، ولابد أن يقع في قلبه معان إيمانية ضرورية لكي يستفيد من هذه المرحلة التي قدرها الله ﷻ في الحقيقة ليظهر فيه الخير ، ليُخرج ﷻ من قلوب أوليائه ما يحب من الاستعانة به والصبر على طاعته ﷻ ، والصبر على ما يصيب الإنسان بسبب مخالفته لأهل الفساد والكفر والنفاق ، وكذلك ليوقن المؤمن بوعد الله ﷻ ويستحضر أن الله الذي أعطى ، وأن الله الذي مَنَّ ، وأن الله الذي آوى ، لأنه سوف تأتي عليهم فترات يكونون هم ملوك الدنيا فوق الخلق يتحكمون فيهم فيما يبدو لهم ، فهل يكونون في ذلك كملوك الدنيا وأهلها ؟ يتحكمون فيها لأنفسهم ولهواهم ، ويقولون : صنعنا وانتصرنا وغلبنا وقهرنا و﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ [القصص : ٧٨] و﴿ هَـٰذَا لِى ﴾ [فصلت : ٥٠] ، ونحو ذلك مما قص الله علينا من

كلام الكفرة والفسقة والفاجرين ؟ أم يعلمون أن الله سبحانه الذي أورثهم الأرض بمشيئته ﷻ لا بقدرتهم ولا بتخطيطهم ولا بإعدادهم .

هناك معان إيمانية لابد أن يستحضرها المؤمن عندما يمر بظروف تشبه الظروف التي مر بها أنبياء الله ﷻ من قبل .

أول هذه المعاني أن يشهد المؤمن قضاء الله ﷻ وقدرته ، وحكمته وعدله ﷻ ، ويشهد أن الأمور كلها بقدر ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر : ٤٩] ، ذلك من أعظم ثمرات الإيمان ، وأن يشهد خلق الله ﷻ لأفعال العباد ، وأنه هو ﷻ الذي جعلهم كذلك ، ليستحضر ملك الله وليستحضر عزته وقهره ﷻ .

انظر وتأمل في قول موسى ﷺ وهو يدعو ربه ﷻ ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ [يونس : ٨٨] .

فموسى ﷺ لم يستحضر في هذه اللحظة أن فرعون عنده ما عنده من المال والجنود والملك والسلطان ، لم يستحضر هذا المعنى ، وإنما استحضر أن الله آتاه فقال : ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ

فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ ﴾ لم يستحضر إلا أن فرعون آلة لنفوذ قضاء الله وقدره ، وهذا والله من أعظم الأمور أهمية ، حين يرى العبد أن من يواجههم من الكفرة والظالمين أعداء الإسلام أضعف وأذل من أن يرجوهم أو يخافهم أو يظن أن الأمور بأيديهم ، فلماذا يسير الناس في ركب الظالمين ؟ ولماذا يداهنون الكافرين ؟ لماذا يوالونهم ؟

ذكر الله ﷻ عن المنافقين ذلك لأنهم يخشون أن تكون الدولة والغلبة لهم ، يخشون أن تكون هناك مرحلة أخرى ، فهم يُعدون العدة لذلك ، وحينما يكون الأمر بالفعل للكفرة والظلمة فإن أكثر الناس يكونون تبعاً لهم ، لأنهم استحضروا أن الملك لهؤلاء ، كما قال الله ﷻ عن المنافقين : ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ ﴾ [النساء : ١٣٨-١٣٩] .

انظر كيف فضحهم الله ﷻ ، وبيّن حقيقة ما في قلوبهم ، فهم يتولون الذين كفروا لأنهم يبتغون عندهم العزة ، يعاونون على الفساد لأنهم يريدون من المفسد مكانة ومنزلة ، ولو استحضروا أن المُلْكَ لله وأن الله الذي آتى فرعون وملأه زينة

وأموالاً في الحياة الدنيا ، وأنه سبحانه الذي قدر أن يوجد من يضل عن سبيله ، وفي قدرته أن يمحوهم في لحظة ، وفي قدرته ﷻ أن يزيلهم من على وجه الأرض ، ومع ذلك قدر أن يضلوا عن سبيله ﴿ رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ ﴾ لماذا قدر الله ذلك ؟! لأن هناك قلوباً خبيثة ، وهناك ما يشبه المغناطيس يجذبها له ، كما قال ﷻ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [الأنفال : ٣٦-٣٧] .

انظر ... الكفار ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله ، وذلك يكون عليهم حسرة بعد ذلك ﴿ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ﴾ [الأنفال : ٣٦] يتحسرون لماذا ؟ لأنهم لا يجدون ثمرة لما يفعلون ، يجدون عكس ما يريدون من صد الناس عن سبيل الله ، وفي نهاية الأمر ﴿ ثُمَّ يُغْلَبُونَ ﴾ وتأمل ذكر ﴿ ثُمَّ ﴾ في هذا الموضع ، وهي للتراخي ، لكي تطمئن ، لكي يسكن قلبك ، لأن الأمور كلها بمقادير ، وأن لها موعدًا

محددًا ، ولا تقل لماذا لم يأخذهم الله الآن ، لماذا تركهم يفسدون في الأرض ثم يغلبون ؟ ، ولذلك قال الله ﷻ لنبيه : ﴿ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ [الأحقاف : ٣٥] فإياك أن تستعجل ، واعلم أن كل شيء بحكمة وبقدر من الله ﷻ الملك المليك المقتدر ، فهو ﷻ الذي آتى فرعون وأمثاله في كل زمان هذه القوة والزينة .

وقال ﷻ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ ﴾ [الأنعام : ١١٢] ، وقال تعالى : ﴿ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾ [الأنعام : ١١٣] .

تأمل والله هذه الكنوز القرآنية ، تأمل أن الله الذي جعل ، هذا أول ما ينبغي أن تلحظه ، ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا ﴾ لم يقل كذلك كان لكل نبي ، وإنما قال : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا ﴾ الله الذي خلق في قلوبهم ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ ﴾ ، وبدأ بشياطين الإنس قبل شياطين الجن لأنهم يضلون الناس أكثر ، ﴿ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴾ يشير بعضهم على بعض ، ويأمر بعضهم بعضا ، وينصح بعضهم بعضا بالفساد والكفر والنفاق ﴿ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ ﴾ أي : القول

المزخرف الذي يحسبه سامعه حقا وهو باطل ، وأكثر الناس ليس عندهم من التمييز والقدرة العلمية على معرفة النافع من الضار ﴿ غُرُورًا ﴾ أي ليغروهم به .

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ﴾ استحضر هذا جيدًا ، أن كل الأمور بمشيئته سبحانه ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ﴾ ثم إذا تم ذلك بإذنه وبحكمته وقع ما أراد سبحانه وتعالى ، هو الذي قدر ﷻ وجود الأعداء وكيد الأعداء ، وكل ذلك لهوانهم عليه ، ولذلك قال لنبيه ﷺ : ﴿ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ وهذا نوع من الاحتقار ، لا تعبأ بهم ، لا تقلق ، لا تضطرب من ذلك .

والخطاب في حقيقة الأمر لكل مؤمن ، كما قال ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴾ [آل عمران : ١٩٦] هم أهون على الله ﷻ من أن يجعل لهم منزلة وقدرًا ، لو كانت الدنيا بأسرها تساوي عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء ، لو أن الدنيا بأسرها كانت تساوي عند الله شيئًا ما مد عمر إبليس ليطول عمره في الدنيا منذ خلق الله آدم وأمر ملائكته بالسجود وأبى إبليس ذلك ، وإبليس مخلوق قبل آدم ، ويظل عمره إلى قيام الساعة ، سألها إبليس فأعطاها الله له .

انظر لتعرف هذه الدنيا ، ما أشد تفاهتها وحقارتها ، لأن الله أعطاها لعدوه ، إبليس اللعين حين سألها ، لأنها أتفه ما يكون ، لذلك استحضر أن ذلك بمشيئة الله ﷻ ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ هم يكيدون كيدًا والله ﷻ يكيد كيدًا ﴿ فَمَهِّلِ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴾ [الطارق : ١٧] .

وكذلك قال سبحانه : ﴿ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴾ [القلم : ٤٤-٤٥] ، يمد لهم ﷻ ولكنهم مربوطون فيما أراد الله ﷻ أن يكونوا فيه ﴿ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴾ لمتانة كيده ﷻ أملى لهم وفتح عليهم أبواب كل شيء ، قال ﷻ : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَـٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ۝ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَـٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ۝ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ .
[الأنعام : ٤٢-٤٥]

قال الله ﷻ : ﴿ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ ﴾ أي الزخرف والقول الغرور ﴿ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ من حكمته ﷻ أنه جعل

قلوبًا تميل إلى هذا الباطل وتقبله وتحبه وترضاه ، وتعين عليه ، وتدعو له ، وتسعى إلى نشره في الأرض ، وهذا باطل أمر قبيح ولكن كثيرًا جدًا من النفوس تميل إليه ، فما السبب ؟ السبب انعدام الإيمان .

﴿ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾ ليكسبوا ما هم مكتسبون لتكون نهايتهم ، ولتكون عاقبتهم كما كانت عاقبة من قبلهم .

كذلك إذا استحضرنا أن الله الذي آتى ، وأن الله الذي قدَّر أن يوجد من يضل عن سبيله ، وأن الله ﷻ يجعل هذا في النهاية لا شيء ، يجعله مطموسًا عليه ، لا يثمر الثمرة التي رجاها أصحابه منه ، لأنهم هان عليه أمرهم ، ولذا دعا موسى عليه السلام ربه أن يطمس على أموال آل فرعون ، قال : ﴿ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا ﴾ [يونس : ٨٨-٨٩] .

ومضى زمن ، وبعض أهل العلم من أهل التفسير يقول بين الدعوة وبين الإجابة أربعون سنة ، الله أعلم كم كان ولكن الدعوة أجيبت ، ولكن لا يعني ذلك أن تجاب في نفس اللحظة ،



فالدعوة المجابة يمكن أن تبقى مدة لا يرى الناس إجابتها في الواقع إلى أن يأذن الله ﷻ ، لأن كل شيء بمقدار ﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

كذلك الاستقامة على أمر الله من أعظم ما يعين على الثبات على دين الله ، وعدم متابعة سبيل الذين لا يعلمون ، عدم متابعة الكفرة والظلمة والمنافقين والفسقة ، فكل هؤلاء لا يعلمون ، وبالأولى أنك لا تكون من الذين لا يعلمون ، إذا كنت قد نُهيت عن اتباع سبيلهم فمن باب أولى ألا تكون منهم ، فذلك العلم من أعظم ما يعين على الثبات على دين الله ﷻ ، أن تكون على علم ، لأنك إذا علمت الحق وأيقنت بوعد الله ﷻ فإنك لن تعبأ بما تراه من مقدمات وبدايات ، هذا هو الدرس الأول والفائدة الأولى ، أن تستحضر أن الأمور بمقادير ، وتشهد قضاء الله ﷻ وقدره ، وأن الملك له سبحانه ، وأنه يفعل ما يشاء ، وأن الأمور بيده ، ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ﴾ تكرر هذا في القرآن كثيرًا ، قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ [الفرقان : ٣١] ، الله ﷻ جعل المجرمين يدبرون الإضلال ومع ذلك فكفى بالله هاديًا ، والمؤمنون لا يجدون أي

سبيل للنصرة من الناس في الأرض ، والله سبحانه كفى به نصيرا ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ كما أنه ﷻ الذي يجعل أئمة الهدى ، فأنت إذا نظرت إلى منة الله ﷻ عليك أن جعلك مؤمنًا مسلمًا وترجو أن تكون محسنًا ، في ظروف وفي أحوال أكثر أهل الأرض قد ضلوا فيها عن سبيل الله ، فتلك منة من الله ﷻ عليك ، هو الذي جعلك كذلك ، فاشهد منته وفضله العظيم ، و والله إنه لفضل عظيم أن يصطفيك الله سبحانه لدينه وسط هذا الركام الهائل ، وسط هذه الضلالات والمنكرات والمفاسد ، ويجعلك ملتزمًا بطاعته ، اختارك الله من بين ملايين البشر لتكون مسلمًا ، وقد جعل غيرك يعبدون البقر ، ويعبدون الشياطين ، ويعبدون الأوثان ، ويعبدون البشر ، وينسبون إلى الله الصاحبة والولد ، ويفعلون ويفعلون ، انظر إلى ما اجتباك الله به ﴿ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ ﴾ [الحج : ٧٨] .

منة من الله أن سماك مسلمًا قبل أن تولد ، قبل أن توجد ، وكتبك في اللوح المحفوظ مؤمنًا مسلمًا متابعًا لنبيه ﷺ قبل أن يصدر منك شيء ، وقبل أن توجد الأرض بمن فيها ، فإن الله

كتب في الذكر كل شيء ، وكتب مقادير الخلائق قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، فإذا نظرت إلى هذا رأيت منة الله عليك ، وإذا كنت ممن رفع الله همته أكثر فجعله يعمل من أجل الإسلام فهذا والله هو الشرف ، فإذا كنت تعمل بالإسلام فذلك شرف لك ، وإذا كنت ملتزمًا بالدين في وسط الكفرة والمنافقين في ملايين بل آلاف الملايين من البشر فهذا من فضل الله عليك أنك واحد في فئة غير ملتزمة ، إذا أضفت إلى ذلك ـ وهي في الحقيقة ضمن العمل بالإسلام ـ أن تعمل من أجل إعلاء كلمة الله وتدعو إليه وتسعى لتكون كلمة الله هي العليا فهذا شرف وكرم من الله تعالى عليك أعظم .

وأمر آخر ينبغي أن تتفكر فيه : هل الذي جعله الله ﷻ ينصر الدين في وسط إشراقه وانتصاره أفضل أم مَن جعله الله ينصر الدين في وسط إظلام الدنيا وإدبارها وابتعاد الناس عن الدين ؟ لماذا سبق السابقون من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ؟ لأنهم التزموا حينما كانت الدنيا ظلامًا ، لأنهم التزموا حينما كان أكثر أهل الأرض ليسوا على الإيمان ، ولا يعمل أحد لأجل إعلاء كلمة الله في الأرض ، وإنما بقي على دين

الأنبياء قلة لكنها اكتفت أن تعبد الله في الصوامع والبيع .

انظر ... أي شرف عظيم شرف السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، لأنهم سبقوا إلى الله في الدلجة ، عندما كانت الدنيا مظلمة ، فسَبْقُهم لا يصل إليه أحد ، لأن الله ﷻ جعلهم هم على الإسلام في وقت كانت الأرض كلها فيه ظلامًا ، وكل من شابههم في جزء من صفاتهم كان له نصيب من ثوابهم ، فعندما يتسمى الناس بالإسلام ـ والحمد لله على ذلك ـ دون أن يعمل أكثرهم به أو من أجله ، ثم يجعلك الله ﷻ تلتزم به وتدعو إليه في هذه الظروف فذلك لأن الله ﷻ اجتباك لذلك واصطفاك وشرفك بأن تعمل للدين في أحلك الظروف ، فإذا شهدت قضاء الله وقدره ، وشهدت منته وفضله لم تعجب بنفسك ، ولم تصب بالكبر والغرور ، ولم تنسب الفضل إلى نفس جاهلة ظالمة ، بل تعرف أن الله ﷻ هو الذي مَنَّ عليك بالإسلام والإيمان إن كنت صادقًا ، فلا تمن على أحد بطاعتك وعملك وإسلامك ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَـٰنِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ .

[الحجرات : ١٧]

فإذا شهدت قضاء الله وقدره فيمن يخالف الإسلام ، وشهدت قضاء الله وقدره فيمن يطيع الله ﷻ ، وتعبدت لله

بمقتضى ذلك من شهود فضله وشهود ملكه ، وأنه ﷻ هو الذي بيده الأمر كله ، وله الحمد كله وبيده الخير كله ﷻ ، وإذا علمت أن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، وشهدت ذلك شكرت نعمة الله ﷻ عليك .

ثم هذا الشهود لقضاء الله وقدره وملكه وسلطانه وربوبيته هو الذي يجعلك تنتقل إلى مشهد الاستعانة حيث تطلب العون من الله وحده لا شريك له ، وهو من أشرف المقامات في مراتب العبودية ، وهو أحد العبادات ، ولكن ذُكرتْ هذه العبادة مؤكدة مستقلة بعد دخولها في عموم ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ ، فأمرنا الله سبحانه أن نقول : ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ، مع أن الاستعانة عبادة لله ﷻ لأنه بدونها لا تتم العبادة ، لأنه بدون الاستعانة بالله وبدون توفيقه لا تكون العبودية له سبحانه .

استعينوا بالله ... من أين تحصل هذه الاستعانة ؟ من شهود أن الأمر بيد الله ، وأن الملك ملكه ، وأن الخلق كلهم نواصيهم بيده .

اسمع إلى قول المستعينين حقًا بالله ﷻ من أنبياء الله ﷺ وكيف كان موقفهم ممن يمكرون بهم ، اسمع إلى قول الله ﷻ عن

نوح عليه السلام فيما ذكر عنه أنه قال لقومه : ﴿ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾ [يونس : ٧١] ، لم يقل لهم كفوا عني ، أو ابتعدوا عني ولا تؤذوني ، وإنما قال لهم : أجمعوا كل ما عندكم أنتم واجمعوا شركاءكم وكيدوني كل ما تقدرون عليه من كيد ، ولا تؤخروني لحظة ، أجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ، لا تترددوا ﴿ ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾ أي لا تمهلوني لأنه توكل على الله عز وجل ، وقال هود عليه السلام مثلها حين قال قومه له : ﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴾ [هود : ٥٤-٥٥] و﴿ كِيدُونِى ﴾ أي اجتمعوا على كيدي ، و﴿ ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴾ أي لا تؤخروني لا تعطوني مهلة ، لماذا ؟ ﴿ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود : ٥٦] سبحان الله .. !! هذا القَدْرُ العظيم من التوكل على الله والاستعانة بالله جعله يحثهم استهتارا بمكرهم واستهانة بملكهم وتخطيطهم ، يحثهم على أن يكيدوا له وأن يجتمعوا على

ذلك ، لأنه متوكل على الذي نواصي الخلق كلهم بيده ﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾ .

كان يدعو النبي ﷺ بمثل ذلك كل ليلة ، عندما يقول قبل أن ينام : « **اللهم رب السموات السبع ورب الأرض ورب العرش العظيم ، ربنا ورب كل شيء ، فالق الحب والنوى ، منزل التوراة والإنجيل والفرقان ، أعوذ بك من شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها ، ـ وفي الرواية الأخرى ـ أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته ، اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء ، اقض عني الدين وأغنني من الفقر** »[1] .

وبذلك نقول إن الاستعانة تحصل في قلب العبد إذا استشعر أن الله هو الذي بيده نواصي الخلق ، أمورهم كلها بيده ، وكذلك إذا استحضر أنه مِلك لله يفعل به ما يريد ، وهو مطلوب منه أن يفعل ما أمر به من العبادة .

قال النبي ﷺ لمعاذ : « **يا معاذ ، والله إني لأحبك ، والله إني**

---

(١) رواه مسلم (٢٧١٣) .

لأحبك ، أوصيك يا معاذ لا تدعن في دبر كل صلاة تقول : اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك » (٢) فأنت تستعين بالله على أن تظل ثابتًا وعلى أن تظل عابدًا شاكرًا **« أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك »** .

وقد طلب موسى عليه السلام المؤازرة بهارون ، لكي يسبحا كثيرا ويذكرا كثيرا ، قال : **﴿ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۝ هَٰرُونَ أَخِي ۝ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ۝ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ۝ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۝ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ۝ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ۝ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾** [طه : ٢٩-٣٦] ، فالله تبارك وتعالى يحب من يذكره ، والاستعانة بالله عز وجل تنبع من شهود أن الأمر بيده ، من شهود القضاء والقدر ، ومرتبة الاستعانة ـ أي طلب العون من الله ـ إنما هي استعانة على عبادته تبارك وتعالى ، والله عز وجل جعل الناس في هذه المنزلة مراتب وأنواعًا ، فمنهم من يستعين بالله تبارك وتعالى على قضاء مصالحه الدنيوية ، فهو يتوكل على الله في أمر الرزق ، وفي أمر الأولاد ، وفي أمر الوظيفة ، وفي أمر العمل وغير ذلك ، وهذا وإن كان حسنًا إلا أنه ليس هو المطلوب فحسب ، وكثير من الناس

---

(٢) رواه أبو داود (١٥٨٨) ، والنسائي (١٢٨٦) ، وأحمد (٢١٦١٤-٢١٦٢١) ، وقال الألباني : صحيح ، انظر (٧٩٦٩) صحيح الجامع .

يستعين بالله ﷻ ويدعوه لنيل المحرم والعياذ بالله ، فهو يتوجه إلى الله وليس في باله أن يطيع الله ﷻ ، ربما وجدتَ من يخرج لأكل الربا ويقول : توكلت على الله ، ونجده فعلًا يسأل الله التوفيق في هذا العمل ، لأنه حصل له الجهل المركب والعياذ بالله ، ولم يعبأ بأن يبحث عن الشرع ، ولم يتعلم شرع الله ﷻ ، ولذلك ظن الجاهل أنه يتوكل على الله لنيل معصية وربما حصل له ذلك .

وإبليس لم يتوجه لغير الله لطلب المد في عمره ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [ص : ٧٩] من سأل ؟ سأل ربنا ﷻ ، وأعطاه الله ما سأل والعياذ بالله ، لماذا ؟ لكي يستعين بهذا العمر الطويل على إضلال الناس ، على محاربة الله ، وهذا عجيب !! أيظن أن الله لا يدري ولا يعلم ما في نفسه حتى كتم هذا الأمر إلى أن تأكد أن الله أنظره ، فقال : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص : ٨٢-٨٣] .

لكنها نوعية عجيبة ، نوعية من المخلوقات غريبة ، تستعين بالله على الكفر به ومعاداته ومعصيته ، نوعية غريبة لكنها موجودة بالفعل ولا تستغربها .

وأعلى الناس قدرًا في أمر الاستعانة هو من يستعين بالله على

عبادته وعلى طاعته ، لأنه يعلم أنه لا يقدر على الطاعة إلا بتوفيق الله ﷻ ، فالله ﷻ يحب من يذكره .

فهذا الأمر الأول ﴿ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ ﴾ .

أما الأمر الثاني : ﴿ وَٱصۡبِرُوٓاْ ﴾ :

فتأمل معي في من يحاربون المسلمين بالفعل في كل المشارق والمغارب ، ألا يصيبهم من الجراح والقتل والمتاعب والشقاء ؟ بلى يصيبهم كثير وأمراض وبلاء ، وبلاء يليه بلاء ، ومع ذلك هم على ما هم عليه ، وهناك من يصيبه ذلك البلاء بعد أن كان في أتم عافية ، هناك من تسلب صحته جزاء إفراطه في ظلم الناس ويبدل بها ضعفًا ، وهناك من يجيء له الألم بسبب طاعة لله ﷻ ، وهذا الألم في الحقيقة ألم له مرارة ولكن حلاوة الطاعة أذابته .

نقول إن أنواع الصبر الثلاثة : الصبر على الطاعة ، والصبر عن المعصية ، والصبر على أقدار الله المؤلمة ، مجتمعة في من يطيع الله ﷻ في وقت الشدة ، لماذا ؟ لأنك أثناء الشدة تحتاج إلى صبر شديد ، الكل يريد أن يبعدك عن الطاعة ، فيقولون : ابعد عن هذه الطاعة كي تسير حياتك بسهولة ، ولا والله لا تسير الحياة بسهولة بغير طاعة ، وإن ظن الناس أنهم يعيشون حياة سهلة ،

فانظر إلى متاعب الناس الذين ابتعدوا عن الإسلام وابتعدوا عن الدين ، هل يعيشون حياة سهلة أم ضنكا ؟ والله إنها لحياة ضنك وشقاء بأنواع مختلفة ، حتى الأغنياء وحتى الملوك والرؤساء والكبراء ، وحتى السادة المبرزون المشهورون ، فإن حياة الضنك ، تحيط بهم كما توعد الله فقال : ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۝ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ۝ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۝ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ [طه : ١٢٣-١٢٦] ولو لم يكونوا في ضنك فلماذا يشربون الخمر ؟ ولماذا يتناولون المخدرات ؟ لماذا يريدون أن يسيحوا في الأرض وينطلقوا بحثًا عن اللذات ؟ لو أن الإنسان كان سعيدًا فلماذا يبحث عن أسباب أخرى للمتعة أو لماذا يغيب عقله ؟

فالصبر أنواعه الثلاثة مجتمعة في من يطيع الله في فترات الشدة والمحن ، لأن الصبر صبر على الطاعات وهو أعلى أنواع الصبر ، وصبر عن المعاصي وهو حبس النفس عنها ، وصبر على أقدار الله المؤلمة ، والإنسان تصيبه أشياء مؤلمة على أي الأحوال ، فلا تخلو الحياة من ألم ، ومنذ نزل آدم عليه السلام والإنسان يشقى ،

الناس من يجري عليه الألم وهو في معصية الله ، وهناك من يجري عليه الألم بغير طاعة ولا معصية ، بل بمصيبة تصيبه ، وهناك مِن الكفار مَنْ يجري عليه الألم ويعذبون وهم في الكفر والعياذ بالله ، لذلك فالصبر على الطاعة في فترات الشدة أهم وأوجب وأعظم .

أما الصبر عن المعاصي : فالكل يدعوك إلى المعاصي ، وانتشار الفساد يجعل المعصية سهلة ، يجعل المعاصي في متناول كل إنسان ، إذا أراد شاب مثلًا أن ينال من فتاة شيئًا أيصعب عليه ذلك في وسط هذا الكم الهائل من التسيب والانحلال والإباحية ؟ ولذلك فالصبر في هذا المقام أعظم من الصبر عن هذه المعصية في مجتمع مسلم ، كل الفتيات فيه محجبات ، والرجال فيه رجال يمنعون نساءهم من الاختلاط المحرم الفاسد ، ويمنعون بناتهم وأخواتهم من ذلك ، والمجتمع كله يذم من يزني ويذم من ينظر ويذم من يعاكس ، ويتوعده بالعقاب ، **فأي** الصبرين أعظم ؟

فمن هو في المجتمع المسلم وهو مأمور بالصبر يكون ثوابه عظيمًا ، فكيف بالذي في وسط الفساد المنتشر في الأرض ،

المبثوث في كل مكان ، الذي يسهل معه أن ينال ما يريد إذا لم يكن يتقي الله ﷻ .

أما الصبر على أقدار الله المؤلمة : فإنما يصيبه بسبب طاعته ، لأنه يُتوعد ويُخوَّف ﴿ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ [الزمر : ٣٦] وقد يصيبه من ذلك ما يصيبه فيحتسب عند الله ﷻ ويصبر ويكون بذلك قد حصَّل أعظم أنواع الصبر .

استعينوا بالله واصبروا : هذه الكلمة الخالدة التي يحتاجها كل مسلم عبر التاريخ ثم يورث الله ﷻ الأرض لعباده المتقين ، قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة : ٢٤] .

اليقين بوعد الله ﷻ والصبر على دينه في فترات الشدائد كل ذلك من أعظم الواجبات ، عندما يقال لك ما قد قيل للرسل من قبل ، عندما تصرف عن الالتزام بطاعة الله ﷻ ، يكون اليقين بوعد الله من أعظم مقامات العبادة والإيمان ، أن توقن أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، توقن أن العاقبة للمتقين ، لا تغتر بما ترى من بداية ترى فيها الموازين لصالح الكفر ، وترى القوى في العالم بأسره بأيدي المشركين ، والله إن

ذلك اختبار لك لكي تستحضر ما أخبر الله ﷻ به من أن المؤمنين هم المنتصرون ، تتذكر ذلك لتزداد يقينًا بوعد الله ، هذه الآية الكريمة من المبشرات ﴿ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف : ١٢٨] .

قال ﷻ في معنى هذه الآية آيات كثيرة لكي نستيقن بوعد الله ﷻ ، قال ﷻ : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ۝ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٥-١٠٦] ، ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ ﴾ أي في جنس الكتب المنزلة على الأنبياء وهي الكتب التي تزبر - أي تكتب - ، ﴿ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ ﴾ أي من بعد كتابة ذلك في اللوح المحفوظ ، ﴿ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ فالعبادة والصلاح وصف الوارثين للأرض .

إذًا فحَقِّقِ الصلاح ، واجْتَهِدْ في العبودية لكي تكون ممن يرث الأرض ، كما قال بعدها : ﴿ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴾ فنحتاج في هذا المقام إلى الاجتهاد في العبادة ، إلى أن نكثر من الصلاة والصيام والدعاء والتضرع إلى الله ﷻ ، وخصوصًا إذا خوِّفت ، كما قال ﷻ : ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ

ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ .

[آل عمران : ١٧٣-١٧٥]

لذلك أنت تحتاج إلى تتبع رضوان الله ، افعل ما يرضي الله ، أَكْثِرْ من الطاعة ، أَكْثِرْ من العبادة ومن الذكر ومن الدعاء ، فإن ذلك من أعظم ما يعينك على الثبات على دين الله ﷻ .

ومن أعظم ما يحتاج إليه المؤمن ، أن يكون مع إخوانه في الله ، يوثق علاقته بهم ، ويتعاون معهم على نصرة الدين وإقامة شرع الله ، ولا يبتعد عنهم ، نحن كنا كركاب سفينة كبيرة ، لكنها غرقت وبقيت لنا قوارب نجاة يجتمع فيها بعض من يلتمس النجاة ، وأسماك القرش في البحر المتلاطم الأمواج تحيط بقوارب النجاة من كل جانب وتنهش في جوانبها ، وهي ليست كالسفينة شديدة محكمة بل هي مطاطية ، أسماك القرش ربما تأخذها من جوانبها وتفزع كل من فيها ، ومع ذلك أتظنون عاقلًا يقول : أسماك القرش تحيط بالقارب ولأني أريد إنقاذ نفسي فسوف أُلقي بنفسي في البحر ، أيكون عاقلًا هذا الذي

يلقي بنفسه وسط أسماك القرش ويترك قارب النجاة الوحيد ؟! لا شك أنه هالك قبلهم ، فأسماك القرش تفعل ذلك لكي يلقي الناس أنفسهم إليها لكي تأكلهم أكلًا ، وأما العاقل فهو يسعى إلى سد ثغرات القارب ونزح المياه التي تأتي إليه من البحر .

ولا شك أن أمواج الفتن عالية ، ورياحها عاتية ، والأخطار محدقة ، ونذر الهلاك كثيرة ، لكننا لابد أن نتعاون على حفظ هذا القارب ، فإن المجتمع الذي كان في يوم من الأيام مجتمعًا مثاليًا يعيش الناس فيه بالإسلام وللإسلام منذ مئات السنين قد غرق تدريجيًا إلى أن صار بعيدًا عن حقيقة الالتزام بالإسلام ، وبقيت فيه قوارب النجاة وهي من يدعو إلى الله ﷻ ويلتزم من أهل المساجد ومن أهل الخير وممن يدعون إلى إقامة دين الله ، فهذه قوارب النجاة ، وأما أسماك القرش حولك فهي أهل الفتن الذين يقولون لك : ابتعد عن هؤلاء لكي تطمئن ، لماذا هم المقصودون ؟ لأنهم هم الباقون لأن الآخرين قد غرقوا ، لا يريد أحد أن يبحث عن هؤلاء الموتى وإنما يريدون هؤلاء الأحياء ، أحياء القلوب ، لذلك الخطر كل الخطر أن تذهب بنفسك إلى أمواج الفتن ، وأن تبتعد عن أسباب طاعة الله ﷻ .

هذه أمور لابد أن تكون على بينة منها لكي تثبت على دين الله ﷻ وكي تستمر على طريق الهداية رغم كل أنواع المعوقات والعقبات التي تموج بنا في الطريق .

وكذلك وصية أخرى نختم بها كلامنا ، أعظم ما يحيي القلب هو ما أنزله الله روحًا من عنده ، كتاب الله ﷻ ، لابد أن نستمد منه الحياة ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾ .

[الشورى : ٥٢-٥٣]

ولا أعني بذلك مجرد تصحيح اللسان وحفظ الحروف والكلمات ، وإن كان ذلك هو الخطوة الأولى اللازمة ، ولكن لابد بعدها من التدبر وإمرار الآيات على القلوب ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص : ٢٩] وليكن تصحيحك للحروف والكلمات وسيلة إلى تدبر قلبك لها ، كما قال أبو موسى الأشعري ﷺ : (لو علمت أنك تستمع إليّ لحبّرته لك تحبيرا) ، أي لزينت لك القرآن بصوتي تزيينًا ، وأنت تريد بتصحيح الكلمات والحروف أن تتفهم القرآن أكثر ،

لأن من لا يحسن القراءة ربما يفوّتُ على نفسه خيرًا كثيرًا من التدبر أثناء القراءة بسبب عدم إتقانه لها .

فنصيحتي إلى إخواني الشباب وأبنائي الشباب أن يستغلوا هذه الفرصة ، فأنت في مرحلة يمكنك أن تحفظ فيها ، ولكن كما ذكرت لا يكن همك أنهم سيقولون عنك : متقن أو ستُعطَى إجازة تفخر بها وتعلقها على الجدران أو تعمل بها في أوقات تحتاج إلى العمل بها فيها ، ولكن اجعل ذلك وسيلة إلى الغاية المقصودة ، فإنما أنزله الله للتدبر ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص : ٢٩] .

نسأل الله ﷻ أن يجعلنا منهم وأن يثبت قلوبنا على دينه ، اللهم يا مصرف القلوب صرف قلوبنا إلى طاعتك واجعلنا من عبادك المخلَصين ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .



الشركة الفنية للطباعة
ت: 7771039 القاهرة